الفصل الثالث

جوانب ابن زيدون

١ — ديوانه

لابن زيدون ديوان كبير ، نشره الأستاذان كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ، وهو يجرى على النمط المعروف لدواوين الشعر العربى ، من حيث الإيجاز فى تقديم القصائد ، وعدم ذكر الظروف المختلفة التى نُظمت فيها ، ولا ريب فى أن هذا يقيم شبكة من الصعوبات فى دراسة الشاعر وشعره .

وقد تعاقبت القصائد بدون نظام ، فلم يُراعَ فيها أى ترتيب تاريخى ، وهذا عيب من عيوب الدواوين العربية أيضاً ، وكأن الشعراء لم يُعنوا بأن يعرضوا على قرائهم المراحل التاريخية لشعرهم ، إنما عنوا بأن يعرضوا خير ما نظموه وأجمل ما تغنّوا به ، فضاع تاريخهم الفنى فى غمار ما طلبوه من المجد الأدبى .

ومن هنا كانت دواوين الشعر العربى قلما تصور المحاولات الأولى التى حاولها الشاعر ، وهو يُمرن نفسه للدخول فى هذا الميدان : ميدان صناعته ، وكأنه رأى فيها قصوراً يهبط به عن الأفق الأعلى الذى يريد أن يحلّق فيه بين زملائه المعاصرين والسابقين ، فنفاها فى أكثر الأحوال من ديوانه ، ولم يُثبت منها إلا ما قد يدل على مستوى براعته المبكرة .

وهذا هو السبب فى أننا إذا قرأنا لشاعر ديوانه لم نجد شعره يختلف من حيث الجودة والرداءة ، فالغالب المعتاد أن نجده يَطّرِدُ فى مُستوى فنى واحد ، لأنه فى حقيقة الأمر منتخبات روعى فيها أن تعبر أقوى تعبير عن مدى إحسانه وتفوقه فى فنه .

وديوان ابن زيدون لا يَشذ على هذه الأصول المألوفة فى دواوين الشعر العربى ، فليس فيه ما يدل على الظروف التى أنشأ فيها هذه القصيدة أو تلك ،

إلا ما قد يقال عرضاً من أنها قيلت فى فلان . وبعد ذلك لا نجد إشارة دالة على تاريخ القصيدة ، كما لا نجد أى بيان عن تناول ابن زيدون لصناعته ، وكيف بدأ عمله فيها ، وكيف تقدم فى هذا العمل ، فإن الديوان وكتب الأدب الأندلسية لم تحتفظ بتجربة من تجاربه الأولى سوى مقطوعة واحدة زعم بعض[1] الرواة أنه ألفها فى صباه ، إذ يقول :

أخذتُ ثلثَ الهوى غَصْباً ولى ثُلُثٌ ... وللمحبين فيما بينهم ثُلُثُ
تالله لو حلف العشاق أنهمُ ... مَوتى من الوجد يوم البَين ما حَنثوا
قومٌ إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتوا فإن عاد مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثوا
ترى المحبين صَرْعى فى عِراصِهِمُ ... كفتية الكهْف ما يَدْرُون ما لَبِثوا

وواضح أن هذه المقطوعة ليست أولى تجاربه الفنية ، بل هى ثمرة تجارب كثيرة تقدمتها قبل أن يصل إلى صنعها . وقد يكون الشىء المهم الذى تشير إليه روايتها ، هو أنه بدأ حياته الأدبية شاعرَ حُبٍّ وصبابة .

ومن يرجع إلى ديوانه يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أن الموضوعات الأساسية التى تتوزع شعره هى الغزل ، والمديح ويدخل فيه ضرب من الاستعطاف . ويقع الغزل فى أعلى الصفحات من حيث التاريخ والزمن الذى كان الشاعر ينظم فيه شعره ، لا لما توحى به الرواية فى مقطوعة الغزل السابقة فحسب ، بل لأن مدائحه التى تشغل أكثر الصحف فى ديوانه ليس بينها واحدة تسبق عصر أبى الحزم جهور . ونفس مدائحه لأبى الحزم إنما تبدأ مع سجنه . فإذا عرفنا أن القاضى الذى سجنه ، وهو ابن المكوى ، تولى القضاء سنة ٤٣٢ للهجرة كان معنى ذلك أن مدائحه فى أبى الحزم لا تسبق هذا التاريخ . حقاً فى الديوان إشارة إلى أنه كان يمدحه قبل سجنه[2] ، ولكن الديوان لم يحتفظ بشىء يوضح هذا المديح توضيحاً كافياً .

وإذن فشعر المديح المنثور فى الديوان متأخر عن شعر الغزل ، ومثله شعر الاستعطاف ، لسبب بسيط ، وهو أنه نظمه أثناء

---

(١) انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (نشر دوزى) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٦٠ .

سجنه ، فطبيعي أن يتأخر هو أيضاً . ونحن نعرف أن سجنه كان أثراً من آثار انصراف ولادة عنه إلى ابن عبدوس ، فبديهي أن يكون حبه لها وشعره فيها سابقاً لشعر المديح والاستعطاف المبثوث فى الديوان ، ما دام هذا الشعر مرتبطاً بالسجن ، لا يتقدمه ولا يسبقه .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على السنة التى التهب فيها هذا الحب ، ولكن من المؤكد أنه لم يسبق وفاة المستكفى (٤١٤ — ٤١٦ هـ) ففتاته لم تفتح أبوابها للشعراء والأدباء إلا بعد زوال دولته ، بل نظن ظنا أنها لم تفتح هذه الأبواب إلا بعد سقوط الدولة الأموية سنة **٤٢٣** هـ .

ومعنى ذلك أننا نرجح أن يكون حب ابن زيدون لولادة تأخر إلى عصر أبى الحزم جهور ، حين هدأت قرطبة وهدأت ثورات البربر ، وسكن الناس إلى حياة فيها هدوء ودعة ، وفيها أمن واطمئنان ، وفيها ما يكفل الفُرَصَ لالتقاء العشاق فى القصور وبين الرياض .

ومهما يكن فشعر الحب عند ابن زيدون هو أقدم ضروب الشعر التى فى ديوانه ، ومن الممكن أن تُعرف أطوارُ هذا الشعر والمراحل التى تنقَّل فيها ، لأنهما تحابا ، ثم وقعت بينهما الجفوة ، أو بعبارة أدق جَفَتْ ولادة عاشقها ، وانصرفت عنه . فمن الوجهة النفسية اختلف موقفه ، إذ كان ينعم بالحب وأصبح يَغَصُّ بالهجر ، فلا بد أن يختلف شعره ، كما تختلف النغمة المفرحة من النغمة المحزنة . ونحن نستطيع أن نضع فى الدور الأول كل المقطوعات التى لا تعبر عن تباريح الهجر ولا عن عذاب الصدود ، إنما هى أنفاس الحب الحارة تتحول شعراً على نحو ما نرى فى قوله :

وشادن أسأله قهوةً ... فجادَ بالقهوة والوَرْدِ
فبتُّ أَسْقَى الراح من ريقه ... وأجْتَنِى الورد من الخَدِّ

وقوله :

يا مخجلَ الغُصُنِ الفَيْنانِ إن خطرا ... وفاضحَ الرَّشأ الوسنان إن نظرا
ما كان حبُّك إلا فتنةً قُدِرَتْ ... هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا

وقوله :

لقد رأتكِ الأمانى رضاً فلم تتعدَّك
يا ليت مالكِ عندى من الهوى لىَ عندك
فطال ليلكِ بعدى كطول ليلىَ بعدك
الدهرُ عبدىَ لما أصبحتُ فى الحب عبدك

وقوله :

لعمرى لئن قلَّت إليكِ رسائلى لأنت الذى نفسى عليه تذوبُ
فلا تحسبوا أنى تبدَّلتُ غيركم ولا أن قلبى من هواك يتوبُ

وقوله :

لئن كنتَ فى السن تِربَ الهلال لقد فقتَ فى الحسن بدرَ الكمالِ
لقد بلَّغتْنى دواعى هواك إلى غايةٍ ما جرتْ لى ببال
فقل للهوى يجرِ ملءَ العنان فميدان قلبى رحيبُ المجال

وقوله :

هل لداعيك مُجيبُ أم لشاكيك طبيبُ
يا قريباً حين ينأى حاضراً حين يغيبُ
كيف يسلوك محبٌّ زانه منك حبيبُ
إنما أنت نسيمٌ تتلقاه القلوبُ

فهذه وما يماثلها فى ديوانه مقطوعات نظمها وهو يرتشف رحيق السعادة من حُبه ، وتنعم عيناه بحبيبته ووصلها وقربها .

وتأتى وراءها أشعار أخرى فى الحب ليس فيها هناءةٌ ولا نشوة ، وإنما فيها الحرقة واللوعة ، وفيها الشكوى من الوشاة وهجر الحبيب بعد الوصال ، والدنيا مظلمة من حول العاشق وعيناه مغرورقتان بالدموع ؛ على شاكلة قوله :

أرخصتِنى من بعدما أغليتِنى وحططتِنى ولطالما أعليتنى
كنتِ المنى فأذقتنى غُصص الأذى يا ليتنى ما فهتُ فيك بليتنى

وقوله :

يا غــزالاً أصــارنى موثقــاً فى يَد المحَنْ
إننى مــذ هجــرْتَنى لم أذُق لذة الوسَنْ
ليت حظى إشــارةٌ منك أو لحظةٌ عَننْ(١)
ليس لى عنك مذهبٌ فكما شئتَ لى فــكنْ

وقوله :

أيوحشنى الزمانُ وأنتِ أنْسِى ويُظلِمُ لى النهارُ وأنتِ شمسى
وأغرِسُ فى محبتــك الأمانى فأجْنى الموتَ من ثمرات غرسى
لقد جازيتِ غَدْرًا عن وفائى وبعت مودتى ظُلماً ببخس
ولو أن الزمانَ أطاع حكمى فديتُك من مكارهه بنفسى

وقوله :

كم ذا أريد ولا أرَادُ يا سُوءَ ما لَقِىَ الفؤادُ
أصْفِى الودادَ مدللاً لم يَصْفُ لى منه الودادُ
يَقضى علىَّ دَلالُهُ فى كل حين أو يكادُ
كيف السلوُّ عن الذى مثواهُ من قلبى السوادُ
ملك القلــوبَ بحسنه فلها إذا أمرَ انقيــادُ
يا هاجرى كم أستفيـ ـدُ الصبر عنك فلا أفادُ
أفلا رثيتَ لمن يبيـ ـتُ وَحشْوُ مقلته السهادُ
إن أجنِ ذنبــاً فى الهوى خطأً فقد يَكْبُو الجوادُ
كان الرضــا وأعيذُهُ أن يُعقبَ الكونَ الفسادُ

فالدنيا عابسة من حوله ، وكبده تتفتت حسرة ، وقلبه يتقطع ألماً ، وكأنما أغمدتْ فيه خنجراً ، وهو ينادى بأعلى صوته ولا من سميع ، ويجأر بالدعاء ولا من مجيب . ويظل كاسفاً مقهوراً وعاشقاً محزوناً ، ويدخل السجن ، وتشتد

---

(١) عنن : عارضة .

به تباريح حبه ، وتشتد الغياهب والظلمات من حوله ، ويستمر يشجينا بِشَدْوه باثًّا لواعج عشقه .

وواضح أن هذه الصورة من غزله تباين الصورة الأولى ، فقد فرت منه السعادة التى كان ينشدها ولم يعد له منها إلا عذاب السجن والألم والفراغ ، فقد هامت صاحبته بابن عبدوس ، وسدت منافذ سمعها أمام شعره ، فلم تعد تنفعه تعاويذه وتمائمه .

وخرج من السجن ، وهو يكاد يموت كمدا ، فالعاشقة قد طارت عن عُشِّ غرامها إلى الأبد ، وأصبح من المستحيل أن تعود إليه ، ومع ذلك أمسك بقيثارته ، وتغنى عليها ألحاناً شجية اعتصر فيها قلبه وفؤاده . وأشفق عليه أبو الوليد ابن جهور ، فقد ألقى إليه بمقاليد دولته ، وجعله وزيراً ومستشاراً له ، ولا تزال العبرات فى عينيه ، فعيَّنه سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف لعله يتعزى أو يتسلى ، ولكن الحنين كان يعاوده من حين إلى حين ، فكان يفزع إلى قيثارته يبكى معاهد قرطبة ، وهو إنما يبكى حبه الدائر ، وحظه العاثر .

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن يوزع شعر الحب عند ابن زيدون على أدوار ثلاثة : دور وصْله ودور هَجْره ودور يأسه أو دور الذكرى ، وينتظم فى الدور الأخير مقدمات مدائحه ، ويغلب فيها أن يجعل صاحبته محصنة منيعة ، تحميها الرماح والسيوف ، فلا يستطيع أحد الدنوَّ منها ولا القرب من دارها ، إلا أن تزهق نفسه ويُستباح دمه .

وإذا كان من الممكن أن يوزع غزله على أدوار ثلاثة فى هذه الصورة التى رسمناها ، فمدائحه تتوزعها أيضاً أدوار ثلاثة تقابلها ، فقد بدأ مدائحه فى السجن ، يرسل بها إلى أبى الحزم مستعتباً مستعطفاً كما يرسل بها إلى ابنه أبى الوليد وهذا هو الدور الأول من مدائحه ، وهى تأخذ شكل استعطاف واسع . ويمكن أن تلحق بهذا الدور الفترةُ التى قضاها بعد فراره من سجنه وقبل استصدار العفو عنه ، كما تلحق به قصيدتاه لأبى حفص بن برد وأستاذه أبى بكر مسلم ابن أحمد . وتُرَدُّ حرية الشاعر إليه ، وما يلبث أبو الحزم أن يتوفَّى ويخلفه ابنه أبو الوليد ، فيقرِّب الشاعر منه ، ويجعل له النظر على أهل الذمة ، ولا يزال

يرْقى به ، حتى يُسلم إليه مقاليد دولته . وفى هذه الحقبة يبدأ الدور الثانى من مدائحه ، إذ يمدح أبا الوليد مدحاً فيه إخلاص ، ولعلنا لا نُبْعِدُ إذا قلنا إن قصيدته الكافية :

ما للمُـــدام تُديرها عيناكِ   فيميلُ فى سكر الصِّبا عِطْفاكِ

هى أولى قصائده التى مدحه بها بعد اعتلائه عرش قرطبة ، ففيها فرحة الصديق بصديقه ، الذى سيحقق له آماله . وعيّنه أبو الوليد على أهل الذمة . وكأن هذه الوظيفة كانت دون ما يصبو إليه ، فكتب قصيدة يمكن أن نسميها « ملتمس الوزارة » وفيها يقول :

فديتك إنى قائلٌ فمعـــرِّضٌ   بأوطار نفسٍ منك لم تقْضِها بعدُ
مُنًى كالشّجا(١) دون اللّهاة تعرّضَتْ   فلم يكُ للمصدور من نَفْثها بُـــدُّ
لعمـــرك ما للمال أسعى فإنمـــا   يرى المال أسنى حظه الطّبعُ(٢) الوغْدُ
ولـــكن لحالٍ إن لبستُ جمالها   كسوتك ثوبَ النصح أعلامُه الحمدُ

وأناله أبو الوليد أمنيته ، ولقبه « ذا الوزارتين » وندبه للسفارة بينه وبين ملوك الطوائف ، فكان يمدحهم ويثنى عليهم ، ويذكر لهم حسن استقبالهم وجميل ضيافتهم

ولا يزال فى هذا الدور الثانى من مدائحه ، حتى توجه إليه تهمة الاشتراك فى مؤامرة بنى ذكوان على السلطان . ولا تثبت إدانته . ولكن تقوم جفوة بينه وبين أبى الوليد ، فيولى وجهه نحو إشبيلية . وهناك يبدأ الدور الثالث من مدائحه التى جعلها خالصة للمعتضد وابنه المعتمد

ومعنى هذا كله أن ترتيب المدائح فى الديوان يمكن أن يُعالج فى يُسْر وسهولة . وفى الديوان قصائد ومقطوعات تتصل بأهل قرطبة . بعضها يمكن أن يلحق بالدور الأول من المدائح ، أو قل بالاستعطاف كشعره فى ابن عبدوس وجده لأمه الوزير محمد بن محمد بن إبراهيم ، وبعضها يمكن أن يلحق بالدور الثانى كشعره فى بنى ذكوان ، ويدخل فى هذا الدور شعره فى ملوك الطوائف ووزرائهم .

---

(١) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .
(٢) الطبع : اللئيم

وكل ما نظمه فى طرطوشة أو بَطليوْس أو بلنسية . أما شعره فى بعض أهل إشبيلية من مثل أبى عامر بن مَسلمة وأبى بكر بن القصيرة فيلحق بالدور الثالث من مدائحه .

على أنه ينبغى أن نشير إلى أن فى الديوان مسمَّطين ، ومقطوعات خفيفة من الألغاز والأحاجى ، وكان المعتمد يجاوبه ويحاوره فاكًّا لألغازه ومعمياته ، وكأنها كانت حِيَلا يصنعها ابن زيدون لغرض التسلية وقتل الوقت .

٢ — شاعريته

يقع ابن زيدون فى الذروة بين شعراء الأندلس من حيث ملكات التعبير الأدبى وما صاحبها من إبداع فنى . وقد أشاد به كل من تحدثوا عنه أو ترجموا له من السابقين ، وخاصة ابن بسام فى الذخيرة إذ يقول : « له شعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزُّهْر اقترانه » . وقد تعاقب الكتَّاب والمؤرخون يُثنون على جمال ديباجته ورونق أساليبه ، فالجميع مشدوه لروعة نظمه وشدة أسره . ونحن لا نرجع إلى ديوانه ونقرأ القصيدة الأولى فيه التى وَجَّه بها إلى أبى حفص بن بُرد من سجنه حتى يفجأنا هذا النسج البديع :

ما على ظنىَ باسُ ... يجرح الدهرُ وَياسو
ربما أشرفَ بالمر ... ء على الآمال يَاسُ
ولقد ينجيك إغفا ... لٌ ويُرْديك احتراس
والمحاذيرُ سهامٌ ... والمقادير قياسُ
ولكم أجْدَى قعودٌ ... ولكم أكْدَى النماس
وكذا الدهرُ إذا ما ... عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ

ومن هذه النغمة الأولى الصافية النقية تنصب بقية النغمات فى الديوان ، فليس فى موسيقاه وألحانه أى شائبة ، إنما فيهما الخفة والرشاقة ، ولذلك كانوا

يشبهونه بالبحترى ، بل كانوا يسمونه بحترىَّ المغرب لسلاسة شعره وانسيابه كأنه الماء العذب السلسبيل .

وليس من شك فى أن هذا يدل على أنه طَبَعَ فنَّه بالطوابع العربية الأصيلة ، فقد أخذ نفسه على ما يظهر بثقافة واسعة للشعر الذى سبقه من العصر الجاهلى إلى عصره ، ولم يدخر وسعاً فى قراءة دواوينه والوقوف على أسراره ، وكأنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغى أن لا ينفصل قديمه عن حديثه ، ففزع إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويَعبّ ، محتذياً بأمثلة سابقيه ، غير خارج ولا ثائر على قواعدهم وقوالبهم الفنية المرسومة .

ولم يلبث أن نفذ إلى موسيقاه الرائعة ، وكأنما حفزه ما قرأه لكبار الشعراء أمثال البحترى وأبى نواس وأبى تمام وابن المعتز والمتنبى وأبى العلاء إلى أن تكون له موسيقاه ، ويكون له عزفه وإيقاعه وتكون له قوالبه الحية الجذابة .

وطبيعى لهذا الشاعر الذى اختبر أوتار القيثارة العربية أدق اختبار ، واستمع إلى شدوها ونغماتها أرهف استماع ، أن يشتد تأثره بمن سبقوه ، وأن يستعير منهم فى الحين بعد الحين ، وخاصة أن هذا الصنيع كان ضريبة مفروضة على الشعراء الذين تقدموه جميعاً لا عند المغمورين منهم ، بل عند أفذاذهم ممن سميناهم .

فإذا خلف من بعدهم ابن زيدون ، وجرى على رسمهم ، وعكف على نماذجهم ، واحتذى أمثلتهم ، لم يكن خارجاً على العرف الشائع ، بل كان مطرداً مع سياق صناعته وأسلوبها الذى اصطلح عليه الشعراء عامة .

ووقف ابن بسام طويلا عند هذا الجانب من شعره ، فكاد لا يترك بيتاً له التقط معناه أو لفظه من شعر غيره إلا نبَّه عليه . وهو فى العادة يعرض القصيدة الجيدة من قصائده ، ثم يعود إليها بالتصفح ، فكلما وجد معنى أو لفظاً مشتركاً بينه وبين من سبقوه دلَّ على موضع أخذه وموطن استعارته . فمن ذلك قصيدته الفائية التى مدح بها المعتضد صاحب إشبيلية ، وهى أجمل وأروع مدائحه جميعاً ، فقد وقف فى نسيبها عند هذين البيتين :

وما وَلَعى بالرَّاح إلا توهمٌ لظَلْمٍ (١) به كالرَّاح لو يُتَرشَّفُ
ويُذكرنى العِقْدَ المُرِنَّ جُمَانُهُ مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فى ذُرَى الأيْكِ تهتِفُ

فلاحظ أنه قلب فى البيت الأول قول المتنبى :

وما شَرَقى بالمــاء إلا تذكُّراً لمــاءٍ به أهلُ الحبيب نُزولُ

أما البيت الثانى فنسخ فيه قول أبى تمام :

وبالحَلْيِ إن قامتْ ترنَّم فوقها حماماً إذا لاقى حمــاماً ترنَّمــا

واستمر فوقف فى المديح عند هذه الأبيات الثلاثة :

طلاقةُ وَجهٍ فى مَضَاءٍ كمثل ما يروق فِرِنْدُ السيف والحدُّ مرهفُ
ولما حضرنا الإذْنَ والدهرُ خادمٌ تشير فيُمضى والقضاء مصرِّفُ
وصَلنا فقبَّلنا الندى منك فى يدٍ بها يُتلَفُ المالُ الجسيمُ ويُخلفُ

ولاحظ أنه استعار البيت الأول من قول البحترى :

ويحسُنُ دلُّها والموت فيــهِ كما يستحسنُ السيفُ الصقيلُ

كما استعار البيتين الثانى والثالث من قوله أيضاً فى الحيبة :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإذْنِ أخِّرَتْ رجالٌ عن الباب الذى أنا داخلهْ
فأفضيتُ من قربٍ إلى ذى مهابةٍ أقابل بدرَ التمِّ حين أقابلــهْ
ولما تأملتُ الطلاقــة وانثنى إلىَّ ببشرٍ آنستنى مخايلــه
دنوتُ فقبلتُ الندى من يدامرئٍ كريمٍ محياهُ سِباطٍ (٢) أناملهْ

وهذه الاستعارات كلها تدل على أن ابن زيدون لم يكن ينقل عن سابقيه « طبق الأصل » بل كان يتصرف تصرفاً على هيئات وصور مختلفة . وهذا من حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاورون على موضوعات ومعانى مشتركة ، فلا بأس أن يُفيد كل منهم من سابقيه ، وأن يحتذى فى بعض شعره على مثال موروث ، ما دام يحسن عَرضه ، وما دام يخرج عن القالب القديم إلى قالب

---

(١) الظلم : بريق الأسنان .
(٢) سباط : جمع سبط : نقيض الجعد . ويقال سبط اليدين والبنان : كريم .

له جديد . إذ تصبح المعانى كالعُمْلة تتفق فى المعدن ، وتختلف فى طريقة الضرب وهيئة الصورة بين بلد وبلد وقطر وقطر .

وكان ابن زيدون يحسن ضَرْبَ الخواطر والمعانى القديمة أو الموروثة فى عُمْلة أندلسية جديدة ؛ فيها جمال الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته . ونفس القصيدة التى تنتسب إليها أبياته السابقة من أبدع ما نظمه شعراء الأندلس فى عصورهم المختلفة . ويستطيع القارىء أن يعود إليها فى النماذج المنتخبة ليرى أنها مثل رفيع من أمثلة النَّسْج المتماسك والسبك الرائع . ولن يضيره بحال أن يكون قد استعار فيها معنيين أو ثلاثة أو أربعة من غيره . فذلك شأن الشعراء جميعاً من قبله ؛ إذ يردد كل منهم قول عنترة الشاعر الجاهلى المشهور « هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ » .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن هذا الصنيع الذى استمر بين أصحاب الشعر العربى مهما غرَّبوا أو شرَّقوا كان أهم الأسباب فى المحافظة على إطاره العام ، فقد ظل امتداداً لماض بعيد وتعبيراً عن حاضر قريب ؛ وظل الشعراء يجمعون جذاذاته الفنية الموروثة . ويعيدون صنعها ، مضيفين ما يعبر عن مواهبهم وأخيلتهم واستجابتهم للحياة التى تجرى تحت أعينهم . والمسألة فى رأينا كانت مسألة حِسٍّ دقيق للعرب بالماضى ، وهو حس نجده فى الآداب جميعاً ، حس يصل بين الأجيال السابقة واللاحقة فى الأمة ، وهو حس لا يفصلها من حاضرها ، بل يؤكد الحاضر فيها ، ويساعدها على أن تتمثله تمثلا واضحاً ، وأيضاً فإنه يُعفى الشعراء مما قد يصيبهم من مَلل إذ يتحول خيالهم إلى الماضى يُفيدون منه موارد جديدة .

على كل حال يصور لنا ابن زيدون فى شعره هذه الروح العربية العامة التى تتمسك بالماضى والتقاليد الموروثة . وكأنما كانت هناك إبر مغناطيسية تجذب شعراء العرب بعضهم إلى بعض ؛ فتتشابه أساليبهم ، ويتشابه إطارها . ولكن دون إخلال بتعبير كل منهم عن شخصيته ونفسيته وحوادثه الشعورية الخاصة .

وابن زيدون من خير النماذج التى تكشف لنا المنزعين . فهو لا يخرج فى شعره على القواعد الموروثة ، وفى الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان

فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق فى الحس والخمر واللذة ، فاتصاله بالماضى لم يَحُل بينه وبين تصوير الحاضر الذى عاش فيه .

أما نفسه وأما حبه فقد أودعهما شعره ، ومثّلهما فى صورة تخفق بالحياة ، إذ لم يصدر فيها عن تجربة كاذبة ، بل صدر عن تجربة صادقة ضغطت على شعوره وقلبه ، ولم تلبث أن حَطمت فؤاده حَطْما ، فقد انصرفت صاحبته عنه ، وأفلتت منه . أما هو فلم ينصرف بل ظل تتبعها نفسه ، وظلت كل خالجة من خوالجه تهفو إليها ، ولم يكن أمامه إلا قيثارته ، فذهب يلحن عليها شجونه وحنينه الذائب المستعر ، فى لهفة ولوعة شديدة لعل من أروع ما يمثلها قصيدته :

أضحى التَّنائى بديلا من تَدَانينا ... وناب عن طيب لُقْيانا تجافينا

وفيها يقول :

حالتْ لفقدكمُ أيامُنا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طَلْقٌ من تألُّفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هَصَرْنا غصونَ الوصل دانيةً ... قطوفُها فجنينا منه ما شينا
ليُسْقَ عهدكمُ عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
يا جنة الخلد أبْدِلْنا بسلْسلها ... والكوثر العذب زَقُّوماً وغِسْلينا

وهى قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الجفاء ، وكأنما يصب فيها زفراته ، وينفث لوعاته ، وهى لوعات محب بلغت به حُمى العشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة . ودائماً نلتقى فى ديوانه بمثل هذه القصيدة ، ومن أروع ما فيه قصيدة بعنوان « ذكرى ولادة » كتبها إليها بعد خروجه من سجنه وقبل العفو عنه ، إذ ألمّ بالزهراء ، ضاحية قرطبة الفاتنة بمناظرها الطبيعية ، فلم يكد يَرْتادُها ، وقد خلع عليها الربيع حُلله ، ونثر فيها زهره ووَرْدَه وطيره ، حتى تشوق إلى حبيبته وتلهف على لقائها ، فناجاها من بعيد :

إنى ذكرتُكِ « بالزهراء » مشتاقا ... والأفقُ طَلْقٌ ومرآى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله ... كأنه رَقَّ لى فاعتلّ إشفاقا

والروضُ عن مائه الفضّيِّ مبتسمٌ ... كما شقَقْتَ عن اللّبّات أطوْاقا
يومٌ كأيام لذاتٍ لنا انصرمتْ ... بِتْنَا لها حين نام الدهرُ سُرّاقا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ ... جال النّدَى فيه حتى مال أعنَاقا
كأن أعيُنَهُ إذ عاينتْ أرَقِى ... بكتْ لما بى فجال الدمعُ رَقْراقا
وردٌ تألّق فى ضاحى منابته ... فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سَرَى يُنافحه نَيْلوفرٌ عَبِقٌ ... وسنانُ نبّهَ منه الصبحُ أحداقا
كلٌّ يَهيجُ لنا ذكرى تُشوِّقنا ... إليك لم يَعْدُ عنها الصدرُ أنْ ضاقا
لا سكّنَ الله قلباً عَنَّ ذكركمُ ... فلم يطرْ بجناح الشوق خفّاقا
لو شاء حَملى نسيمُ الصبح حين سرى ... وافاكمُ بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وَفَّى المنى فى جمعنا بكمُ ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا
كان التّجارى بمحض الوُدِّ مُذ زمنٍ ... ميدانَ أنسٍ جرَيْنا فيه أطلاقا
فالآن أحمدَ ما كنا لعهدكمُ ... سَلوْتُمُ وبقِينا نحن عُشّاقا

وواضح ما تموج به هذه المناجاة من مختلف المشاعر ومتنوع الخواطر ، فهو محب قلق بين اليأس والرجاء ، وهو ينظر فى الطبيعة حوله ومباهج الربيع ، فيشعر كأن كل شيء يشاركه فى همومه . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه المقطوعة تجربة نفسية كاملة للشاعر على قلة ما نجد من ذلك فى شعرنا العربى ، فالشاعر يعطينا نفسه من خلال الطبيعة التى يصفها ، يعطينا ألمه وحزنه واضطرابه وحنينه المشتعل الذى لا يسكن ولا يهدأ ، فقد تحول كل ما فيه إلى جذوة للحب تتقد وتستعر ، ولم يعد يملك من دنياه إلا دموعه ، وإلا زفراته ؛ وإنها لتكاد تحرق ضلوعه .

ومما ينزع هذا المنزع من البكاء والحنين المسمّطان اللذان أشرنا إلى وجودهما فى الديوان ، فهو فيهما يبكى المعاهد والآثار التى كان يقضى فيها مع حبيبته أمسيّاته ولياليه ، وكأنه يبكى رسوماً دارسة ، وهو يكثر من هذا البكاء ويكثر من الوقوف على تلك الأطلال التى انطمس تذكارها فى نفس معشوقته ، ولكنها لا تزال ماثلة أمام بصره .

وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن ابن زيدون هو أهم شاعر

وجدانى ظهر فى الأندلس ، فهو أستاذ هذا الفن هناك ، إذ كان أول من اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جَوًى وحرقة وهوى ولوعة ، وتبعه أصحاب الموشحات والأزجال يصوغون على هديه ويحتذون بمثاله .

وعلى نحو ما اعتصر فؤاده اعتصر اللغة نفسها ، واستخرج منها كل ممكناتها الموسيقية ليشدو ألحانه المشجية التى ملكت على العرب ألبابهم فى عصورهم القديمة والحديثة ، حتى جعل كبار شعرائهم من همهم أن يعارضوا بعض قصيده ، كى يظفروا ببعض أنغامه ، فعارضه صفى الدين الحلى والصفدى وأخيراً شوقى فى نونيته[1] الأندلسية ، إذ صاغها على نمط نونيته (أضحى التنائى بديلا من تدانينا) كما صاغ كافيته اللبنانية[2] التى يغنى مقطوعة منها عبد الوهاب على نمط كافيته (ما للمُدام تديرها عيناك) وقد عبر أجمل تعبير عن إعجابه به فى قوله :

ابنُ زيدونَ عبقــرىٌّ زمانــه　　قصَّر المحْسنون عن إحسانه
أخــذ الرومُ فى الجزيرة عنــه　　ومَشَوْا فى خيــاله وافتنانه

وليس روم الأندلس وحدهم هم الذين أخذوا عنه لوعة فؤاده وعمق عشقه ، بل أخذها أيضاً فى جنوب فرنسا جماعة التروبادور الذين تأثروا فيما بعدُ أصحابَ الموشحات والأزجال من الأندلسيين ، فعمله أو بعبارة أدق غزله كان واسع التأثير بما فيه من عمق الهوى وعذاب الحب وحرقة العشق .

---

(١) مطلع هذه النونية :
يا نائح الطلح أشباه عوادينــا　　نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
(٢) مطلع هذه الكافية التى نظمها شوقى فى زحلة :
شــيعت أحــلامى بقلب بــاك　　ولمت من طرق الملاح شــباكى
جاء فى ديوان شوقى (ولحت) بدلا من (لمت) وهو خطأ من الناشر .

٣ — رسالته الهزلية

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لابن عبدوس منافسه فى حبها ، وهى رسالة طريفة من حيث الأسلوب الذى اتبعه فيها ، إذ أجرى على لسان معشوقته تهكماً واستهزاء بغريمه ، بلغ فيهما شأواً بعيداً فى الإجادة .

وكل من يتصفح الرسالة يستطيع أن يرى المشابهات الواضحة بينها وبين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، ومعروف أن الرسالة الأخيرة تعرّض فيها الجاحظ لأديب كان يُكثر من نقده وذمّه ، وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادىّ ، واتفق أن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً ، فنعته بأنه مربّع مدوّر ، واستمر يُضفى عليه صُوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال فى كل ميدان من ميادين الثقافة .

وقرأ ابن زيدون هذه الرسالة وأعجب بها ، فحاول أن يصنع على مثالها هذه الرسالة الهزلية ، وهو يستهلها بذم ابن عبدوس ، إذ يقول :

« أيها المصاب بعقله ، المورَّط بجهله ، البيِّن سَقَطُه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب » .

وتنطلق ولادة — فالرسالة على لسانها — تصف رسوله إليها وما زَيَّنَتْ ، حتى خيَّلت لها أنه جمع كل الفضائل من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ووفاء وحلم وكرم ودهاء وذكاء وبيان وعقل وفلسفة وكلام ومقالة ونحلة ،

فهو المثل الأعلى فى الأخلاق ، وهو المثل الأعلى فى الثقافة . وفى كل لون من ألوان الأخلاق وكل ضرب من ضروب الثقافة تذكر شخصاً يمثله من ملوك الأعاجم وسادة العرب وفلاسفة اليونان وأصحاب الكلام والفقه . وتذكر أن صاحبته رفعته فوقهم مكاناً عليًّا .

وكل ذلك يجرى مجرى التهكم مما يستطيع القارىء أن يرجع إليه فى فصل النماذج . فهى ترفع من تخاطبه كأنها أو كأن ابن زيدون يريد أن يرميه من حالق . وهى تخلط ذلك بسرد الأمثال والأبيات التى تجرى مجراها مستمدة منها الهزؤ به والعبث بعقله . وما تلبث أن تُفصح عما فى نفسها ، فتتوعده وتنذره ، ثم تنهال عليه بالسباب والشتائم . فالشرق والغرب لا يجتمعان ، والخبيث والطيب لا يستويان . وتعود فتبرق وترعد « فالنار ، ولا العار ، والمنية ، ولا الدنية ، والحرة تجوع ولا تأكل بثديها » وتقول له لا يغرّنك من شهدت حولى من أقمار العصر وريحان المصر . وأين أنت وهم ؛ إنهم فى السماء ، أما أنت فى الحضيض والدَّرْك الأسفل . وما تزال به حتى تحضه على الندامة من محاولة دنوه منها والاستغفار مما حدثته نفسه بها .

وكل ذلك يُساق فى سيول من الأمثال ، وأبيات منثورة من الشعر ، غير الأعلام وأسماء الرجال الذين تزخر بهم الرسالة ، وكأن ابن زيدون يؤلف متناً من المتون ، فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم ، حتى يقع فى مثل أو فى حادثة أو فى بيت شعر يحتاج إلى فضل من الشرح ولهذا كله عمد ابن نباتة إلى شرح الرسالة وسمى صنيعه « سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون » .

٤ — رسالته الجدية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة وهو فى السجن ، يستعطف بها أبا الحزم جهوراً ، كى يطلق وثاقه ، ويعيد إليه حريته المسلوبة ، وهى لا تقل جمالا ولا إبداعا عن سابقتها ، بل لكأنها قصيدة نظمها ، ففيها انفعال حاد ، وفيها عاطفة ملتهبة ، وفيها اضطراب وقلق شديد ، قلق البلبل الحبيس فى غياهب السجن وظلماته .

وهو يفتتحها باستعطاف أبى الحزم واستنزال صوب رحمته وعطفه متأدباً فى خطابه ، مثنياً عليه ، مادحا له ، متعللا بالآمال فى العفو عنه ، مستطرداً إلى وصف ذنبه ، وأنه لا يبلغ شيئاً بجانب الذنوب الكبيرة المعروفة عند فقهاء الإسلام ومؤرخيه ، وكأنه يريد منه أن يستصغر خطيئته ويغفرها له .

وما يلبث أن يتنصل من جريرته فلا ذَنْبَ إلا نميمة نفثها كاشح ووشاية بثها كاذب ، واستطرد فذكَّره بأنه من شيعته، ومثله لا تضيع وسائله ، ولا تضيق مذاهبه ، بل مثله ينبغى أن يدركه أبو الحزم حين تلم به حادثة أو تنزل به كارثة ، فهو شاعره الذى يُدبج فيه مدائحه ، وإنه ليستعيذ به أن يكون « كالذُّبالة المنصوبة تضىء للناس وتحترق » .

وهنا تثور نفسه ، فيعلن أنه لا يصبر على الذل والهوان ، ويلمِّح بأنه يستطيع مفارقة الوطن الذى ينكره إلى حيث يجد من يضاحكونه « قبل إنزال رحله ويعطونه حكم الصبى على أهله :

وقيل له أهـــلا وسهـــلا ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ ومَقيلُ »

وأخذت ثورته تهدأ ، فعاد إلى صوابه ومحبة وطنه ، وأعلن أنه لا يؤثر عليه وطناً غيره ، كما أعلن أنه لا يختار على أبى الحزم ملكاً آخر من ملوك

عصره، ودلف من ذلك إلى استعطافه والمبالغة فى تملقه حتى يعفو عن جنايته . وذيّل الرسالة بقصيدة فى مدحه واستذلال نفسه له وطلب العفو والغفران منه .

والرسالة تمتلىء كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، كما تمتلىء بذكر الأمثال، تتخلل ذلك عبارات ، نُزعت من الشعر والنثر القديم . من أجل ذلك كانت هى الأخرى تشبه متناً من المتون ، وكانت ألفاظها وأساليبها فى حاجة إلى بيان وتفسير ، وهذا ما حدث فعلا فقد شرحها الصفدى فى كتاب سماه « تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون » . وواضح أنه شعر فى دقة بما نقوله من أنه يعالج متناً يشبه متون العلم لا رسالة أدبية ، فهو يسمى شرحه «تمام المتون» ، إذ يرى نفسه إزاء رموز من الوقائع والتاريخ والأمثال يعوزها غير قليل من التوضيح والبيان .

ويستطيع القارئ أن يرجع إليها فى فصل النماذج ليرى أنها تحتوى بجانب ما ذكرنا على اقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث . فهى متنٌ بأدق ما تدل عليه هذه الكلمة . ولا ينفى ذلك أنها رائعة من الوجهة البلاغية، وخاصة حين يترك ابن زيدون الرمز والإشارة ويعمد إلى الاسترسال فى كلامه، إذ يبنيه من لفظ جزل رصين ، فيه قوة ، وفيه سحر وجمال .

ونالت هذه الرسالة الجدية وسابقتها الهزلية شهرة مدوية فى تاريخ الأدب العربى ، للبراعة الأدبية فيهما من جهة ، ولما احتوتا من وقائع التاريخ وحوادثه وأسماء الرجال وأبيات الشعر الجيدة والأمثال من جهة ثانية .

ولم يكتب ابن زيدون رسالتيه بأسلوب السجع الذى شاع فى عصره بالمشرق، بل كتبهما بأسلوب النثر الحر الطليق . ولعل فى هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلس لم تكن قد ارتبطت حتى هذا العصر ، عصر ملوك الطوائف ، بأسلوب السجع ، بل كانت لا تزال أقرب إلى الفطرة والطبع .

وليس ابن زيدون وحده الذى استخدم الأسلوب المرسل فى نثره ، فمن حوله استخدمه ابن شهيد فى رسالته « التوابع والزوابع » كما استخدمه ابن حزم فى رسالته « طوق الحمامة » . ومع ذلك فقد كان بين الأدباء من يلتزم السجع على نحو ما نجد عند ابن بُرْد الأصغر فى رسائله .

ومهما يكن فقد كان ابن زيدون بارعاً فى صَوْغ الكلام سواء أحاله شعراً أم أحاله نثراً ، وكانت لديه قدرة بديعةفى حَوْكه ونَسْجه مهما يكن الخيط الذى يحوك عليه أفكاره ، وينسج حوله ألفاظه ، ضعيفاً أو واهياً . ويروى الرواة أن بنتاً له توفيت ، فوقف للناس بعد جنازتها يتقبل عزاءهم ويشكرهم ، فلم يجب أحداً بعبارة أجاب بها غيره . وهذا دليل ناطق على سعة تصرفه فى التعبير وقدرته على التفنن فى استخدام الأساليب . وأظن من حقنا أن نقول إنه كان فلتة من فلتات عصره ، سواء فى شعره أم فى نثره .